

الصلة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

القصص الدني

وقعة الجمل

عبد الحميد جودة السحار

١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

(قرآن کریم)

خرجت عائشة وطلحة والزبير ووجه بني أمية
من مكة ، واستمروا في السير قاصدين العراق ،
وقابلهم في الطريق أحد أقارب عثمان ، فخلا
بطلحة والزبير وقال لهما :

— إن ظفرتما (أى انتصرتما) فلن تجعلان
الأمر ؟ أصدقاني .

— لأحدنا إذا اختاره الناس .

— بل اجعلوه لولد عثمان ؛ فإنكم خرجتم تطلبون
بدعيه .

فقالوا له في إنكار :

— ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ! فرجع

قريب عثمان ، ورفض أن يخرج معهم ، واستمر

الرَّكْبُ فِي سِيرِهِ ، وَحَانَ أَوَانُ الصَّلَاةِ ، فَأَذَّنَ
مَرْوَانَ ، ثُمَّ جَاءَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَقَالَ :

— أَتَيْكُمَا أَسْلَمَ عَلَيْهِ بِالْإِمْرَةِ ، وَأَوْذَنَ بِالصَّلَاةِ .

رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ أَحَقُّ بِإِمْرَةِ الْقَوْمِ ،
فَقَالَ :

— عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ :

— عَلَى أَبِي طَلْحَةَ .

وَكَادَ الشَّقَاقُ يَقَعُ بَيْنَ الْقَوْمِ ، لَوْلَا أَنَّ تِدَارَكَتْ
عَائِشَةُ الْأَمْرَ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَرْوَانَ :

— مَالِكُ ! أَتُرِيدُ أَنْ تَفَرِّقَ أَمْرَنَا ، فَلْيُصَلِّ ابْنُ
أَخْتِي .

فَصَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالنَّاسِ ! تَرَكَتْ عَائِشَةُ
شُيُوخَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَجَعَلَتْهَا فِي أَبْنَائِهِمْ .

ورحل القوم ، وكانوا كلما مرّوا على ماء أو وادٍ
سألوا الدليل عنه ، حتّى بلغوا ماء ، فأخذت
الكلابُ تنبح ، فسألوا الدليل :

ـ أى ماء هذا ؟

ـ ماء الحوّاب .

ففزعّت عائشة ؛ فقد تذكّرت يومَ قال النّبيُّ صلّى
الله عليه وسلّم ، لنسائه فى إنكار :

« لَيْتَ شِعْرِي ، أَتَكُنُّ الَّتِي تَنْبَحُهَا كِلَابُ

الْحَوَّابِ ؟ » لقد تيقّنت فى هذه اللّحظة أنّ النّبيَّ

لا يرضى عن خروجها هذا ، فصرخت بأعلى

صوتها :

ـ أنا والله صاحبةُ كِلابِ الحوّاب ، رُدّونى ، أنا

صاحبةُ كِلابِ الحوّاب ، رُدّونى رُدّونى .

وأناختْ بعيرها ، فأناخ النَّاسُ حولها ، وعشى

القومُ أن تعودَ عائشةُ إلى المدينة، ففكّروا فى أن

يفعلوا شيئاً يضطرُّها إلى المسير ، فجاء عبدُ اللَّهِ بنُ
الزُّبَيْر ، وقال لها :

- النِّجَاةُ ! النِّجَاةُ ! فقد أدرككم واللَّهِ عليُّ بنُ
أبي طالب .

فصدَّقَتْ قوله ، وسارت لتؤلِّبَ النَّاسَ على أميرِ
المؤمنين .

جاء عليًا خبرُ خروج عائشة وطلحة والزبير ،
فخرج وهو يرجو أن يلحقَ بهم في الطريق ،
فيحولَ بينهم وبين الخروج ، ولكن بلغه أنهم فاتوه
(أى سبقوه) ، فعزم على أن يخرج في آثارهم ،
وسار عليٌّ حتى نزل بجيشه بحبال جيوش عائشة
وطلحة والزبير ، وراح بعضهم يخرجُ إلى بعض ،
ولا يتحادثون إلا في الصلح ، وخشي قتل عثمان
أن يتفق الطرفان ، ويتم الصلح ، وأن يقعَ عليهم
العقاب ، فقاموا في عمائة الصبح ، وانسلوا إلى
المعسكر الآخر ، وأخذوا يضربون الناسَ بأسيا فيهم ؛
فانتشرت الجلبة ، فخرج عليٌّ يسألُ عن الخبر ،
ف قيلَ له :

— فُجئنا بقومٍ منهم يهجمون علينا ، فرددناهم .

فصاح عليّ :

- أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا .

أسرع رجلٌ إلى عائشة . فلما دخل عليها ، قال لها :

- أدركي ، فقد أبى القومُ إلا القتال ، لعلَّ الله يُصلحُ بك .

وخرجت عائشة ، وحمل الناسُ هودجها ، وشدُّوه إلى الجمل ، وأقبلت عائشةُ على هودجها ، فلما برزت من البيوت ، وكانت بحيث تسمعُ الغوغاء ، وقفت فلم تلبث أن سمعت ضوضاءً شديدة ، فقالت :

- ما هذا ؟

- ضجةُ العسكر .

- بخيرٍ أو بشرٍ ؟

- بشرٌ .

فقالت للآخذِ بخطامِ جملها :

- تقدّم بكتاب الله عزّ وجلّ ، فادعهم إليه .

فخرج الرجلُ يحملُ المصحف ، ويدعوهم إلى كتاب الله ، فخشى قتلَ عثمان الصُّلح ، فرشقوا الرَّجلَ رشفًا واحدًا فقتلوه ، وراحوا يرمون عائشة في هودجها ، فنادت :

- يا بَيِّتَ ، البقية البقية ، الّله الله ، اذكروا الله عزّ وجلّ والحساب .

ولكن قتلَ عثمان صَمًّا آذَانَهُمْ ، فقالت عائشة للناس :

- أيّها النَّاس ، العنوا قتلَ عثمان وأشياعهم .

وأخذت تدعو ، وارتفعت أصواتُ النَّاسِ بالدُّعاء ، وسمعَ عليُّ بنُ أبي طالب جلبة ، فقال :

- ما هذه الضجّة ؟

فقالوا له :

- عائشة تدعو ، ويدعون معها على قتلِ عثمان وأشياعهم .

فدعا عليّ :

— اللَّهُمَّ العن قُتْلَةَ عِثْمَانَ وَأَشْيَاعَهُمْ .

وخرج رجلٌ من أنصارِ عليٍّ على فرسه بين

الصفّين ، فقال :

— أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا أَنْصَفْتُمْ نَبِيَّكُمْ حَيْثُ أُبْرِزْتُمْ

عَقِيلَتَهُ (زوجته عائشة) لِلسُّيُوفِ .

فرشقوه بالنبل ، فحرك فرسه ، وذهب إلى عليٍّ

ابن أبي طالب ، وقال :

— مَاذَا تَنْتَظِرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ عِنْدَ

الْقَوْمِ إِلَّا الْحَرْبُ .

وجد الإمامُ عليٌّ أَنَّ لَا مَفْرَءَ مِنَ الْحَرْبِ ، فَقَامَ

فَقَالَ :

— أَيُّهَا النَّاسُ ، إِذَا هَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تُجْهِزُوا عَلَيَّ

جَرِيحَ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا مُوَلِّيًّا ، وَلَا

تَطْلُبُوا مَدْبِرًا (هَارِبًا) ، وَلَا تَكْشِفُوا عَوْرَةَ ،

وَلَا تُمَثِّلُوا بِقَتِيلٍ ، وَلَا تَقْرَبُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَا

تجدونه في عسكرهم من سلاح أو عبد أو أمة ،
وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب
الله .

وخرج عليّ بنفسه على بغلة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، لا سلاح عليه ، فنادى :
- يا زبير ، اخرج إلى .

فخرج الزبير وهو يحمل سلاحه ، فقبل لعائشة ؛
إن الزبير قد خرج لعليّ ، فأحسّت رعباً ، فقد
كانت تعلم أنّ مصير من يخرج لمبارزة عليّ الموت ،
فأشفقت على زوج أختها أسماء ، وأظهرت جزعها .
فقبل لها إن عليّاً قد خرج لا سلاح عليه ،
فاطمأنت .

واعتنق كل واحد منهما صاحبه (أى تعانقا) ،
فقال عليّ للزبير في عتاب :

- ونحك يا زبير ! ما الذي أخرجك ؟

- دم عثمان .

- أما تذكرُ يومَ لقيتَ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَنِي بِيَّاضِهِ ، وَهُوَ رَاكِبٌ حِمَارَهُ ، فَضَحِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَضَحِكَ أَنْتَ مَعَهُ ، فَقُلْتَ أَنْتَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا يَدْعُ عَلَيَّ زَهْوَهُ ، فَقَالَ لَكَ : لَيْسَ بِهِ زَهْوٌ . أَتَحِبُّهُ يَا زُبَيْرُ ؟ فَقُلْتَ : إِنْى وَاللَّهِ لِأَحِبُّهُ ، فَقَالَ لَكَ : إِنَّكَ وَاللَّهِ سَتُقَاتِلُهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ ؟

فَقَالَ الزُّبَيْرُ :

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، لَوْ ذَكَرْتُهَا مَا خَرَجْتُ .

- يَا زُبَيْرُ ارْجِعْ .

- وَكَيْفَ ارْجِعُ الْآنَ وَقَدْ اجْتَمَعَ الْجَيْشَانِ لِلْقِتَالِ !

وَهَذَا وَاللَّهِ هُوَ الْعَارُ الَّذِي لَا يُغْسَلُ .

- يَا زُبَيْرُ ارْجِعْ بِالْعَارِ ، قَبْلَ أَنْ تَجْمَعَ الْعَارَ وَالنَّارَ .

فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ وَقَدْ طَاطَأَ رَأْسَهُ ، وَسَارَ لِيَتْرَكَ مِيدَانَ

الْقِتَالِ .

ودارتِ المعركة واشتدَّتْ ، فزحف الإمام نحو
الجميل بنفسه ، في كتيبتِه الخضراء من المهاجرين
والأنصار ، وحولَه بنوهُ الحسنُ والحسينُ ومحمدُ ابنُ
الحنفية ، ودارتِ رحى المعركة الرهيبة ، فحمل
الإمامُ حملةً واحدةً ، فدخل وسطَ جيشِ عائشة ،
وراح يضربُ بسيفه ، والرجالُ تفرُّ من بين يديه ،
وتجرى هنا وهناك ، حتى خضبَ الأرضَ بدماءِ
القتلى ، ثم رجعَ وقد انثنى سيفه ، فأقامه بركبته .
وبدأتِ الهزيمة تدبُّ في صفوفِ عائشة ، فالتفتِ
الناسُ حولَ الهودج ، واشتدَّ القتالُ ، فكان الهودجُ
هدفَ الإمامِ ورجاله ، ورأى طلحةُ انهزامَ جيشه
وأنصاره ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال :
- اللَّهُمَّ إِن كُنَّا قَدْ ذَاهَبْنَا (نافقنا) فِي أَمْرِ عِثْمَانَ
وظَلَمْنَاهُ ، فَخُذْ لَهُ الْيَوْمَ مَنَا (انتقمْ له اليوم منا)
حتى ترضى .

وسمع مروان ما قاله طلحة ، فخشى أن ينسحب
كما انسحب الزبير ، فرماه بسهم ، فسقط طلحة
يجود بأنفاسه .

وحمل رجالٌ على عليّ الجمل ، وضربه رجلٌ
بسيفه فسقط ، فأسرع الناسُ إلى الهودج ، وأنزلوه
عن ظهر البعير ، وتركوه بين القتلى ، وكأنه قُنفذ ،
مما رُمي فيه من النبل ، وأمر الإمام محمد بن أبي
بكر ، وكان معه يحاربُ أخته ، أن يذهب إلى
عائشة ، ليحملها بعيداً عن القتلى ، وقال له :

- انظر ، هل وصل إليها شيء ؟

وذهب محمدٌ إلى الهودج ، وأدخل رأسه فيه ،
فقالت عائشة :

- من أنت ؟

- أخوك البرّ .

- الحمد لله الذي عافاك .

وخرج محمد بن أبي بكر بأخته في سكون الليل إلى البصرة ، وهدأت المعركة ، وقد قُبل طلحة ، وقتل الزبير غدرا ؛ فقد خرج رجلٌ خلقه بعد أن ترك القتال وقتله ، وأمن الإمام الناس جميعا ، وجهز عائشة للعودة إلى المدينة حتى إذا جاء ميعادُ خروجها قالت للناس :

— يا بنى ، تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة (أى استبطاء للخير ، واستزادة منه) فلا يعتدين أحدكم على أحدٍ بشيءٍ بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بينى وبينَ عليٍّ فى القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندى على معتبى من الأخبار .
فقال على :

— صدقت ، والله ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فى الدنيا والآخرة .

وسارت عائشة ، وخرج على ليشيعها أميالا ،
وخرج بنوه معها يوما ، وفي الطريق قالت :
— وددت أني لم أخرج ، إنما قيل لي تخرجين
فتُصلحين بين الناس .